

الحبّ. فهربت من أمها ذات ليلة وأقبلت تفتش عنه وكرهت أن تتركه وحار هو في إيجاد مخبأ لها. وبعد أن أعيته الحيل هداه فكره الوقاد الى إخفائها داخل تمثال (مارس) ومكثت فيه ردحاً. وكان (اسكانيو) يخرجها منه في بعض الليالي سراً. وإتفق أُنّي - ولنزوة طارئة لا تعليل لها ثبت رأس التمثال وهو كامل تقريباً على الهيكل. وسرعان ما بات قبلة أنظار كل أهالي باريس. وهؤلاء الذين جاوروني كانوا يعتلون سطح بيوتهم لمشاهدته.

وتقاطر الناس ليتابعوا ظاهرة مخصوصة فيه فقد كانت في المدينة شائعة قديمة مؤداها أن قلعتي مسكونة بالأرواح على أنّي لم ألحظ ما يؤيد هذا الزعم. والعامّة في باريس يطلقون على هذه الأرواح مصطلح ليمونيو بوريو Lemmonio Boreo^(٥٧). وحقيقة الأمر أن الفتاة المخبأة لم تكن تقوى على البقاء ساكنة ففي أثناء حركتها كانت تشاهد من خلال فتحتي عين التمثال. فزعم بعض السخفاء أن الروح تقمّصت التمثال وراحت تحرك عينيه وفمه وكأنها تريد الكلام. وإرتد بعضهم على أعقابهم عند رؤية الحركة وولى مذعوراً. والآخرون الأرحح عقلاً وإتزاناً لم يسعهم بعد التحقق إنكار ما رأوا من وميض في العينين يشبت أنهما تنبضان بالحياة فعلاً. وأقروا بحلول روح في التمثال غير مدركين بأنّ من حلّ فيه ليس روحاً فقط بل لحماً ممتازاً!

حينذاك تفرغت الى تجميع وتركيب مدخل الباب الجميل بنقوشه التي أتيت الى وصفها. ولما كنتُ زاهداً في تضمين ما أدون من تاريخ حياتي - أموراً تهّم كتاب التاريخ، فقد أغفلت الحديث عن دنوّ الإمبراطور على رأس جيشه اللّجب من باريس وتعيّنة الملك كلّ قواته. على أنّ هذا يتفق والزمن الذي إستشارني جلالته في إقامة تحكيّمات عاجلة لباريس. جاء الى منزلي لهذا الغرض وصحبني في جولة تفقد وتفتيش حول المدينة. وما ان وجدني على إستعداد للمساهمة في تحصين باريس على مباديء وأسس سليمة وخلال وقت قصير حتى أصدر أمراً إستثنائياً عاجلاً يقضي بتطبيق كل ما أقترحه من تدابير من دون تلوؤ. وأمر أميراله بتنبية المواطنين كافة الى إطاعة أوامري وإلاّ أستهدفوا لسخطه. كان هذا الأميرال قد حصل على منصبه بتدخل ووساطة (مدام ديتامب) فحسب، لا بفضل عمل جليل صدر منه. وكان محدود القابليات والذكاء. ويسبب ما ذكرت ولأنّ إسمه (دا انيبول d'Annebault) ويقابل السيد دا انبالي بلغتنا وإنك تجد الناس ينطقون إسمه بلهجتهم الخاصة كما لو كان Ane-Bouf^(٥٨). بمختصر القول إن هذا المأفون نقل الى (مدام ديتامب) كل ما وقع لي. فأمرته بإستقدام (جيروليمو بيللاماتو Girolimo Bellarmato) على الفور من (دييب) وهو مهندس من أهالي (سيينا) ودييب تقع بمسافة تزيد عن رحلة يوم واحد من باريس. فجاء فوراً وشرع في تطبيق خطة تحكيم في غاية التعقيد. فانسحبت من العمل كلية ولو واصل الإمبراطور زحفه لأمكنه إحتلال باريس بكل سهولة.

(٥٧) يفسر ناشرو المخطوطة والمترجمون (لاسيما الفرنسيون) أنّ الإسم قد يكون تحريفاً لتعبير Le démon bourreau أي إبليس الجالد. أو ربّما قصد چليليني به Le moine bourru أي الراهب الفظ.

(٥٨) لن يخفى عنصر الفكاهة على القاريء حين يعلم أنّ معنى Ane بالفرنسية (حمار) ومعني boeuf (ثور)!

وقيل أن معاهدة صلح عقدت فيما بعد^(٥٩) كشفت عن عمل خياني لـ (مدام ديتامپ) كان لها فيه اليد الطولى ولن أطيل في هذا فهو ليس من شأني.

إنصرفت بكليتي الى إنجاز المدخل البرونزي ووضع اللمسات الأخيرة على المزهية الكبيرة، ومزهريتين متوسطتين كنت قد صبيتها من فضتي الخاصة. وعاد الملك الى باريس ليصيب بعض الراحة فترة بعد معاناته الكثير من المتاعب. لا بد ما جاءت هذه المرأة اللعينة الى هذه الدنيا إلا للتخريب والتدمير. وما من شك في أنها كانت تصنّفي بين ذوي الشان والخطر لتجد بي عدواً رئيساً، فقد ملأت أذني الملك بالحديث السيء عني حتى حلف لها الملك الطيب إرضاءً لها بأنه لن يعاملني إلا معاملة مخلوقاً لا قيمة له وأنه لن يأبه بي وسيتجاهلني وكأنه لا يعرفني.

نقل لي هذا رأساً حاجب اسمه فيللا Villa مختص بكردينال (فرارا) وقال أنه سمع بنفسه هذه العبارات من فم الملك. فهاجت نفسي ورحت أقذف بأدواتي وما بيدي من أعمال في أرجاء الغرفة وتهيأت لمغادرة باريس.

بعد أن أكملت استعدادي للرحيل إنطلقت لمواجهة الملك.

دخلت على جلالته وكان قد فرغ لتوه من الغداء ووجدته وحده خلا مرافقٍ واحدٍ أو اثنين. حبيته بالتوقير والإحترام الحريين بالملك. وما وقعت أنظاره عليّ حتى إرتسمت على وجهه إبتسامة ومال برأسه نحوي. فإطمأنت نفسي وأفرخ روعي، فدنوت من جلالته رويداً رويداً. كان مرافقاه يعرضان عليه بعض الأشياء التي تخص صناعتني وبعد أن دار الحديث حولها برهة سألني أيجاد في منزلي شيء قمين بالرؤية يمتاز بالجمال. فأجبت إن شاء فأنا مستعد لعرض شيء عليه الآن. فسألني متى يسعه أن يأتي قلت الآن، فأمرني بالعودة الى منزلي على التو وانتظار مقدمه.

عدت، وبقيت في انتظار الملك الكريم الذي قصد (مدام ديتامپ) يستأذنها في الخروج فسألته عن وجهته وأبدت رغبتها في مرافقته، ولما أخبرها بوجهته قالت أنها عدلت عن ذلك ورجت منه تأجيل ذلك والبقاء إكراماً لها. ولجأت الى عدة محاولات أخرى في هذا المجال والخاصة أنه لم يأت منزلي في ذلك اليوم.

في يوم الغد وعين الساعة إنطلقت أنا إليه. ما وقعت أنظاره عليّ حتى إبتدرني بالقول أنه يعتزم التوجه الى منزلي الآن. وكالعادة ذهب يستأذن (مدام ديتامپ) وحين أدركت عجزها بكل ما تملك من دالة وتأثير عليه - راح لسانها السليط يسألني مفترياً متهماً كأني أعدى أعداء العرش. وكان جواب الملك الطيب على هذا قوله أنه ما قصد الزيارة إلا ليشبعني تقريعاً وتأنيباً بلاحدٍ ووعدها بكلمة شرف بأنه سيفعل ذلك حتماً. ثم قفل الى منزلي مباشرة.

تقدمته الى بعض الغرف في الطابق الأرضي، حيث كنت قد فرغت من تركيب أجزاء المدخل الكبير برمته. وما ان سلط أنظاره عليّ حتى إنعقل لسانه دهشة ولم يجد سبيلاً الى توجيه عبارة لومٍ أو

(٥٩) كان ذلك في ١٥٤٤ إذ تم بين الملكين عقد معاهدة غريبي Grèpy وبموجبها تنازل فرنسوا الأول عن مقاطعتي سافوي ويسدمونت وتخلي عن إدعائه بكل من ناپلي وأرتوا والفلاندرز، مقابل حصوله على إقليم بورغندي.

تأنيب واحدة كما تعهد. إلا أنه لم يضع مع هذا فرصته في توجيه اللوم إذ شرع بالقول:

- أي بنفثوتو! هناك أمر هام واحد يجب عليكم أنتم أيها الفنانون الموهوبون أن تدركوه. وهو أنكم لا تتمكنون من إظهار مواهبكم دون تشجيع ومساعدة. إن عظمة فنكم لا تتجلى إلا بالفرص التي نتيحها لكم. وأنت بالذات عليك أن تكون أكثر إطاعة وأقل معاندة ومكابرة. أذكر مما أذكر أنني أصدرت لك أمراً صريحاً بصنع إثني عشر تمثالاً فضياً. هذا ما كنت أريد منك، غير أنك أبيت إلا أن تصنع لي "ملمحة" وزهريات وثمانيل نصفية وأبواباً وحاجات أخرى كثيرة. حتى أنك أسلمتني إلى حيرة عظيمة متفكراً كيف تجاهلت رغباتي ورحت ترضي نفسك سادراً على هواك. إن ظننت بأني قادر على الإستمرار في مجاراتك، فأنت واهم وسأريك الطريق التي سأسلكها عندما أريد أن تنجز الأمور وفق رغبتني. ولذلك فأني أنذرك بوجوب الحرص على إطاعة أوامري. وإن بقيت مصراً على ركوب رأسك منفذاً ما شئت أهواؤك، فإن حالك ستكون حالة من يضرب رأسه في جدار.

كان مرافقه من النبلاء يصغون بكل إنتباه وأنظارهم شاخصة إليه وهو يلوح برأسه عابساً مقطباً محرماً هذه اليد تارة وتلك تارة أخرى والكل يرتجف فرعاً بإرتقاب ما سيحل بي. إلا أنني كنت قد صممت أن لا أدع للخوف سبيلاً إليّ بأية صورة.

ما ان إنتهى من التوبيخ الذي وعد به (مدام ديتامپ) حتى ركعت على ركبة واحدة وبعد أن لثمت طرف معطفه من فوق ركبته قلت:

- أيها الملك الكلي القداسة أنا أقر بصواب كل ما قلت. وكل ما أملك من جواب هو أنني كنت قد ألزمت نفسي بطاعة وخدمة جلالتك من كل قلبي وبهمة لا تكمل ليلاً أو نهاراً. وإن بدا لك ما يناقض قولي فعلى جلالتك أن لاتنحو باللائمة على شخص (بنفثوتو)، بل على حظه العاثر وسوء طالع الذي يحاول أن يجعلني غير جدير بخدمة أعظم أمير في العالم. ولذلك فأني أستميحك العفو والمغفرة وليس لي إلا أن أضيف هذا: كنت أتصور أن جلالتك قد زودني بكمية من الفضة لاتكفي لغير التمثال الذي أنجزته. وقمت بصنع الاناء من الفضة القليلة المتخلفة قاصداً لإطلاع جلالتك على الفن الجميل الذي إستطرفه الأقدمون، وفي ظني أنك لم تتطلع عليه من قبل. وأما عن الملمحة فأعتقد إن لم تخني الذاكرة - أن جلالتك طلبت مني ذات يوم أن أقوم بصنعها لك برغبة منك بعد أن بحثت مسألة ملمحة أخرى عرضت عليك، وعندها عرضت عليك النموذج الذي كنت قد عملته في إيطاليا فأقدمت بكل حرية وإختيار على دفع ألف دوقية ذهبية لي فوراً وأطلقت يدي في عملها. وقد أعربت أنت نفسك عن إمتنانك العظيم للفكرة بل شكرتني بما لا مزيد عليه عند فراغي منها كما يغلب على ظني. وأما عن (عقادة) الباب فالإنطباع المتكون عندي حوله هو أن جلالتك أصدرت أمراً به لكبير أمناء السر مسيو دي فيللروا مرة عندما كنا نبحث في أمره. فقام هذا بدوره بإصدار الأوامر لكل من مسيو دي مارمانيا M. di Marmagna وموسيو ديللا فا M. della Fa لضماني إستمراري في العمل به ولمنحي علاوة من أجل ذلك، ولولاها ما كان بوسعي مواصلة العمل بهذا المشروع الكبير. وأما بخصوص التماثيل النصفية البرونزية

والقاعدة التي يستقر عليها تمثال جويتر وغيرها، فلا نكران في أنني قمتُ بصب التماثيل النصفية من تلقاء نفسي والسبب في هذا هو أنني أجنبي لم أمارس العمل من قبل بالصلصال الفرنسي، ولذا كان صب التماثيل النصفية بالبرونز مجرد عملية تجريبية فما كان بوسعي أبدأ صب التماثيل الكبرى إلا بعد إجراء هذا الإختبار. وأما عن القاعدة فقد صنعتها لأنها تناسب التماثيل أتم مناسبة. ومن هذا يجد جلالتك أن كل ما قدمت عليه كان يحدهه أسمى النيات ولم يكن قصدي مطلقاً معارضة جلالتك. ولا أكنتم أن نفقات هذا التمثال العملاق حتى هذه اللحظة كانت من جيبي الخاص. وقد فكرت أن ملكاً عظيم الشأن مثلك إستخدم فناً ممتازاً مثلي - جدير بأن يخلده ويمجده عمل تمثال لا نظير له عند الأقدمين، فضلاً عن السمعة التي سيكسبها الفنان الصانع. لكنني أرى أن الله لا يريد أن ينيلني شرف الجدارة بخدمتك لذا أرجو جلالتك عوضاً عن المكافأة الكريمة التي كنت قد إعتزمتها لعملي - أن يسمح فيض كرمك بإخلاء سبيلي، فإن تفضلت بالإذن لي بالسفر، فسأعود الى إيطاليا وأنا ألهج دائماً بحمد جلالتك داعياً الى الله لك وشاكراً تلك الساعات الهنيئة التي قضيتها في خدمة جلالتك.

أمسك بي وأنهضني بكل لطف فإستويت قائماً. وقال: عليك أن تقنع بالبقاء في خدمتي. وإن كل ما صنعتته هو حسن وهو به جد مسرور. ثم إستدار نحو جمع النبلاء الذين يحيطون به ونطق بهذه الكلمات وأنا أنقلها بالحرف الواحد:

- إنني أقول جازماً لو صنع مدخل لباب الجنة لما خرج أبدع من هذا.

بعد هذا المديح السامي - بقيت ساكناً برهة. ثم واصلت بكل إحترام فشكرته مرة أخرى مكرراً رجائي بالسماح لي بمغادرة البلاد لفرط ما كنت أشعر به من حنق. لم يتبين هذا الملك الجليل أن لم أتلق عطفه الكريم الذي طبع عليه بالشكل الجدير به صاح بي بصوت مخيف راعد أمراً، ينهاني عن التفوه بكلمة أخرى وإلا لحقني ضرر عظيم، ثم أردف قائلاً إنه سيغرقني بالذهب، وأنه راضٍ أتم الرضى عن أشغالي التي أنجزتها بمبادرة مني، فضلاً عن تلك التي أنجزتها بأمر منه وأنه لن يحصل بعد هذا خلاف بيننا لأنه فهم نفسيتي. وعلي أنا من ناحيتي أن أحاول فهمه بالشكل الذي يرشدني إليه واجبي.

أجيبته: إنني أقدم الشكر لله وجمالته على كل شيء. ثم رجوته أن يتكرم علي برؤية التمثال العملاق بعد المراحل التي قطعتها فيه. فرافقني اليه وأمرت بإزاحة الأغطية عنه. فكان إعجابه به يجلل عن الوصف وأمر أمين سره تواً بأن يدفع لي دون تلكؤ كل ما أنفقت عليه من مالي الخاص بالغ ما بلغ وبحسب القائمة التي أكتبها. ثم غادرني مودعاً بقوله: "في أمان الله يا صديقي". عبارة ندر أن تخرج من فم ملك.

بعد عودته الى القصر، أخذ يستعيد في ذهنه أقواله كلها وكيف أنني بدأتها متواضعاً فيها متصاعراً الى أقصى الحدود وكيف إنتقلت بها الى نبرة فيها من التعالي والغرسة ما لامزيد عليهما، فإنزعج كثيراً. وحصل أنه ردها مغيضاً بمحضر من (مدام ديتامپ) والسيد دي سان پولو M.

di San Polo وهو من كبار نبلاء الفرنسيين، وهو الذي كان فيما مضى قد تعدى كل الحدود في إظهار صداقته لي. لكنه في هذه المناسبة بدأ أخلص الأوفياء لي على الطريقة الفرنسية. وما جرى آنذاك هو أن الملك بعد نقاشٍ طويلٍ راح يشكو من موقف كرينال (فرارا) بقوله أنه عهد إليه بأُموري فأهملها ولم يهتم قلامه ظفر بتصريفها وأضاف قائلاً أن الفضل في بقائي بمملكته لا يدين الي الكرينال. وأنه سيعهد بأُمري الي شخصٍ آخر أحسن تقديراً لي من الكرينال، لأنه لا يريد أن يزودني بذريعة لتركي خدمته.

وهنا عرض (مسيو دي سان پولو) خدماته فوراً وطلب من الملك أن ينيط به مسؤولية تصريف شؤوني قائلاً أنه سيتخذ كل حيلة لتلافي الأسباب التي قد تدفعني الي الرحيل. فرد الملك قائلاً: لا مانع لديه من ذلك شريطة أن يعلمه (مسيو دي سان پولو) بالوسائل التي سيتخذها ضمناً لبقائي وكانت (مدام ديتامپ) تتابع الحديث مقطبةً مغيظة. فتوقف (مسيو دي سان پولو) وأمسك عن مصارحة الملك بالتدابير التي سيتخذها لبقائي. فأعاد الملك السؤال عليه. فأجاب وقصده إرضاء (مدام ديتامپ) وإدخال السرور الي نفسها:

- هذا الـ(بنثوتو) الذي ذكرته سأعلقه من رقبتة وبهذه الصورة لن تفقده.

وعندها قهقهت (مدام ديتامپ) وقالت "هذا ما يستحقه". وضحك الملك مجاراةً لها. ثم عقب قائلاً أنه ليرغب جداً في أن يقدم (مسيو دي سان پولو) على شنقي شريطة أن يجد له أولاً شخصاً من عياري ووزني بديلاً وهو عندها حرٌ يفعل بي ما يشاء وإن لم أكن أستحق هذه النهاية. وإنقضى اليوم بهذه الصورة وبقيت قيد الحياة وحمداً لله وشكراً!!

في تلك الأثناء كان الملك قد أنهى الحرب مع الإمبراطور بعقد صلح. لكن حربه مع الإنكليز تواصلت. هؤلاء الشياطين الذين إستمروا يخلقون المتاعب والمشاكل وكان على جلالته يركّز إهتمامه في أمورٍ أخرى لا تمت الي اللهو وأسباب التسلية بسبب، وأتاب (بييرو ستروزي)^(٦٠) قيادة حملة بحرية في المياه الإنكليزية. كانت مهمة خطيرة عسيرة حتى بالنسبة الي هذا العسكري المحنك الذي بدأ وحيد عصره في صناعة الحرب قدما كان الأوحد المتفرد بسوء الحظ^(٦١).

ومرت بضعة أشهر دون أن يصلني أي مبلغ أو أكلف بعملٍ ما. فسرحت كل صنّاعي بإستثناء الإيطاليين اللذين أنطت بهما العمل بإناءين كبيرين من فضتي الخاصة. إذ لم يسبق لهما الإشتغال بالبرونز. وعلى أثر فروغهما منهما حملتهما الي مدينة إسمها (ارجنتان)^(٦٢) من أملاك

(٦٠) هو من أسرة ستروزي Strozzi الشهيرة التي ناصبت آل مديتشي العداة. ففي العام ١٥٣٧ أفلح الدوق (كوزيمودي مديتشي) في إلحاق الهزيمة بجيش الجمهوريين الذي كان بقيادة آل ستروزي وآل سالفياني. وظفر بالقائدين فأحتز رأس سالفياني وأبقى (فيليو ستروزي) والد بييرو في السجن، وأشيع أنه أعتيل فيه وقيل أنه قتل نفسه. إلا أن بييرو تمكن من الفرار ولجا الي ملك فرنسا.

(٦١) يشير چليليني هنا الي معاكسة الحظ ل: بييرو دائماً. فمثلاً أخفق في تحقيق أي نصر على الإنكليز هنا. مُني كذلك بهزيمة أخرى في العام ١٥٥٥ بالقرب من مارشيانو (سيينا) أمام (كوزيمو) أيضاً وكان أيضاً على رأس جيش فرنسي.

(٦٢) تقع هذه المدينة على مسافة ١٤٠ كيلومتراً غرب باريس.

ملكة النافار على مسيرة أيام قليلة من باريس. ووجدت الملك يشكو وعكة. وأنهى كردينال (فرارا) إليه نبأ مقدمي فلم يعلق بشيء، الأمر الذي أمضني وأورثني ضيقاً لازمني بضعة أيام، فأعصابي في الواقع لم تكن تتحمل حالات كهذه على أنني نجحت بعدها في تقديم نفسي للملك وعرض الإناءين الأنيقين عليه، فسُرَّ بهما أعظم السرور. ولما وجدته طيب المزاج رجوته أن يسمح لي متلطفاً بسفرة الى إيطاليا وقلت إنني مستعد للنزول عن مرتبات الأشهر السبعة الفائتة المستحقة ولا مانع من تسديدها لي فيما بعد إن شاء جلالته في حالة ما لو إحتجتُ إليها للعودة.

توسلت اليه ليتكرم عليّ بهذه المنة. متعللاً بأن الظروف هي ظروف حرب وقتال لا ظروف إقامة أنصاب ومثايل. وأضفتُ قائلاً أنه أسبغ على رسامه (بولونيا) مثل هذا الفضل ورجائي أن يتفضل عليّ بمثله.

كان الملك أثناء ذلك يتفحص الإناءين بدقة، مرسلًا اليّ بين آن وآخر نظرات شزراء مخيفة. إلا أنني مضيت في سؤالي ملحاً كل ما وسعني الإلحاح. وعلى حين غرة حمي غضبه فنهض وترك كرسيه وقال:

- بنفوتوا! إنك لأحمق كبير. خذ هذين الإناءين الى باريس. وعدُ بهما إليّ وهما مطليان بالذهب. وخرج دون أن يزيد.

دنوت من كردينال (فرارا) الذي كان حاضراً. وصرت أرجو منه بأن يحاول التوسط لي عند الملك لتحقيق طلبي الإذن بالسفر فهو صاحب الفضل عليّ. وهو الذي منّ عليّ بالكثير وحقق إطلاق سراحي من السجن في روما الى جانب أياديه الأخرى. ليتمكنني من العودة الى إيطاليا. أجاب الكردينال، أنه لتسره المحاولة وسيبذل قصاره ويوسعي الإتكال عليه تمام الإتكال، لا بل إن يوسعي الرحيل الآن إن شئت دون وجل، إذ أنه سيقف موقف المدافع الحريص على سمعتي أمام الملك.

قلت إنني على معرفة بأن الملك قد عهد بي إليه. فإن أجازني هو فسأرحل وأنا مطمئن خالي البال، مستعداً للعودة لدى أقل إشارة منه. إلا أن الكردينال نصحني بالعودة الى باريس والإنتظار أسبوعاً ريشما يسترضي الملك ويقنعه بإعطائي الإجازة. وأنه سيخبرني دون تأخير ومن غير تردد اذا ما إمتنع الملك عن منحي إياها. وإن لم يكتب لي بهذا فبوسعي الرحيل مطمئناً.

عدتُ الى باريس بناءً على وصية الكردينال وصنعتُ خلال الفترة ثلاث علبٍ بديعة للأواني الفضية الثلاثة. وبعد مضيّ عشرين يوماً بدأتُ إستعدادي للسفر وحزمتُ الأواني وحملتُها ظهر بغلٍ إستقرضته من أسقف (پافيا) الذي كان يسكن في قلعتي. حتى مدينة (ليون).

هكذا تركتُ باريس كما شاء لي سوء حظي.

من رفاق السفر السيد (إيپوليتو گنزاجا Ippolito Gonzaga) وهو من خدام الملك ومن خاصة الكونت (گاليوتو ديلا ميراندولا Galeoto della Mirandola) ونبلاء آخرون من بيت الكونت. ورافقتنا ايضاً مواطننا الفلورنسي (ليوناردو تيدالدي Leonardo Tedaldi) تركتُ القلعة بعهدة (اسكانيو) و(باگولو) وإستأمنتهم على كلِّ مقتناتي ومنه تلك الأنية الصغيرة التي بدأتُ بعملها، تركتها للشابين كيلا

يُمَيِّيان عاطلين. ومما خَلَفْتُ مقداراً كبيراً من الأثاث البيتيّ الثمين فقد كان مستوى عيشي عالياً. وربما بلغ ثمن ما تركته ألفاً وخمسمائة دوقية أو أكثر.

ذَكَرْتُ (اسكانيو) بالجَمِيل الذي صنَعته له، ونَبَّهته بأن لا ينسى ما غمرته من أفضال أو نعم. قلت له إنه كان حتى هذه الساعة نزقاً طائشاً خَلِيع العذار، لكن عليه الآن أن يتحلى بأخلاق الرجال، من جدية ووقار ورزانة. وها أنا ذا أودع إليه كل ما لديّ، فضلاً عن شرفي وسمعتي. وأوصيته بأن يتصل بي حالاً إذا أصابه هؤلاء الفرنسيون الغلاظ بأذى لأعود على جناح الطير. فقد عاهدت نفسي على الإلتزام بكلمتي للملك الجليل إلتزاماً تاماً. فضلاً عن حرصي على شرفي.

وأجاب (اسكانيو) وقد إغرورقت عيناه بدموع الكذب والنفاق:

- إني ما عرفتُ أباً خيراً منك وسيكون موقفك معك موقف الإبن الصالح إزاء الأب الصالح.

وبعد أن رتبتُ أموري بهذه الصورة إنطلقتُ في سبيلي برفقة خادمٍ واحدٍ وصبيّ فرنسيّ.

بعد ظهر ذلك اليوم قصد قلعتي بعض أبناء الخزانة الملكية الذين لا يحفظون لي ودّاً، هؤلاء الأندال الأوشاب طفقوا يكيلون لي التهم زاعمين أنّي غصبتُ فضة الملك وهربتُ بها وحثّوا السيد (گويدو) وأسقف پاڤيا على إرسال حملة تعقيب ورائي لإستعادة أموال الملك وإن أحجما فسيقومون هم بذلك. وسألقي ما أكره بسبب ذلك. فملك الرجلين الخوف الشديد وعجلاً بإيفاد ذلك الخائن (اسكانيو) بالبريد السريع في أعقابي فأدركني والليل يكاد يتنصّف وكنْتُ ساهراً مستيقظاً لم يغمض لي جفنٌ من فرط القلق أحدث النفس بقولي:

أنظر الى من تركتُ مقتناتي وقلعتي، أواه! كيف يلازمني سوء الحظ ليرغمني على هذه الرحلة؟ أرجو من الله أن لا يكون الكردينال حليفاً لمدام ديتامپ) فما تريده هذه المرأة هو أن أفقد حظوظي عند الملك الطيب.

وفيما أنا أضرب أخماساً بأسداس وأحرق الإرم غيظاً سمعتُ (اسكانيو) يناديني فهببتُ من رقدتي فوراً وإبتدرته بالسؤال أخيراً يحمل لي أم شراً فأجاب اللص قائلاً:

- أنباء طيبة. كل ما عليك أن تفعل هو إعادة الآنية. لأن أميني الخزانة الوغدين قد أثاراً ضجة. والسيدان گويدو وأسقف پاڤيا يقولان لا سبيل غير إعادتها بأية صورة، ومن ثم لا يعود ما يوجب القلق وفي إمكانك إستئناف سفرتك بقلب مطمئن وإستمتاع.

فأسرعتُ بتسليم الآنية إليه، رغم أن إثنين منهما كانا ملكاً حلالاً، كما سلمتُ له الفضة وحاجاتٍ أخرى. كان قصدي أخذهما الى دير كردينال (فرارا) في ليون. غير أنني أتهمتُ بأخذهما الى إيطاليا؛ فالمعروف للجميع أنه من قبيل المحال إخراج نقود أو ذهب أو فضة من البلاد دون إجازة خاصة. كيف يتصور المرء إمكان إخراجي هذين الإناءين الكبيرين اللذين يعادلان حمولة بغل؟ فضلاً عن صندوقيهما، في الواقع كنتُ قلقاً على مصيرهما لفرط جمالهما ونفاسة قيمتهما في حالة وفاة الملك فقد تركت جلالته وهو في أخطر مرحلة من مرضه. قلت لنفسي:

- لو حصل شيء له. فسأكون مطمئناً الى وجودهما في حوزة الكردينال. فلا أفقد آثارهما.

لكن وقع المقدر على كل حال. وأعدتُ البغل والآنية وأشياء هامة أخرى وفي اليوم التالي باشرتُ المرحلة التالية من سفري برفقة من نوهت بهم، وأنا لا أقوى على حبس تنهداتي ودموعي، على أنني كنتُ بين الفينة والفينة أستمدُّ القوة والراحة من الله. وأنا أرفع دعائي إليه.

"أيها الإله القادر على كل شيء، أنت العارف بالحقيقة، أنت تعلم أن رحلتي هذه لم تكن إلا من أجل مساعدة ستّ بناتٍ صغيرات مسكينات شقيّات ووالدتهما شقيقتي، صحيح أن لديهنّ أباً لكنه شيخٌ فان أدركه الهرم ومهنته لاتدرّ عليه شيئاً وهن معرّضات للتلف، فيا أيها العزيز المتعالي إني أركن إليك وأهتدي بك في قيامي بهذا العمل الصالح".

كان هذا ما فرّج من كربتي وأراحني خلال سفرتي.

وفي ذات يوم عندما كنا على مبعدة يوم واحد من (ليون) قبيل المغرب بساعتين تقريباً. طرق سمعنا هزيم الرعود في سماء صافية! كنت على مرمى سهم أتقدم أصحابي، ففوجئنا على إثر هزيم الرعد بصوت هائل مرعب إرتجت له أركان السماء حتى حسبت أنه يوم القيامة. توقفت هنيهة وإذا برشقات من البرد تنهال فوق الرؤوس دون أن تصاحبها قطرة ماء منها أكبر من حجم بندقة البارودة المنطلقة من سبطانة النفخ- محدثة المأ حيشما وقعت من بدني. ثم تضاعف حجمها فصارت أشبه بحشوة القوس القذاف. وحانت مني التفاتة الى حصاني فوجدته يكاد يُجنُّ رعباً فلويت عنانه وكررتُ راجعاً الى رفاقي بسرعة جنونية. وكان الخوف قد تملكهم مثلي فإحتموا في غابة صنوبر. وإستمر سقوط ذلك البرد الشبيه بالصخر وزاد حجمه فغدا بقدر الليمونة الكبيرة. فشرعت في تلاوة (صلاة الإستنجاد في وقت الضيق^(٦٣) Misérée) وفي أثناء صلّاتي هذه لله بكلّ خشوع سقطت واحدة كبيرة جداً بحيث كسرت فرعاً غليظاً من الصنوبرة التي كنت أحسبني آمناً تحتها. ثم سقطت رشقة أخرى من البرد على رأس حصاني فترنح وكاد يهوي على الأرض وأصابتنني واحدة إصابة غير مباشرة ولولا ذلك لقتضت عليّ. وأصابت واحدة أخرى الشيخ المسكين (ليوناردو تيدالدي) الذي إضطر الى أن يجبو على يديه وكان راععاً مثلي. ثم لما وجدت فرع الشجرة أعجز عن حمايتي وإن على المرء أن يفعل شيئاً آخر الى جانب تلاوته (الميزيرير)، أسرع فجمعت أطراف ثوبي فوق رأسي وقلت لـ(ليوناردو) الذي كان يستنجد بالسيد المسيح ليكون في عونته وهو أقصر عن ذلك. وكان إهتمامي بأمره أصعب عليّ من إهتمامي بأمره. وإستمرت العاصفة ردهاً من الزمن ثم توقفت بعد أن أصابنا منها ضررٌ عظيم ودقّت عظمتنا دقاً، إلا أننا إمتطينا جبادنا بأفضل ما أمكن وإنطلقنا نريد الوصول الى محطتنا الثانية وبعضنا يكشف لبعض عن الحدوش والأورام التي نالته. وبعد نحو من ميلٍ طالعنا منظر خراب ودمار يفوق مانالنا ويجلّ عن الوصف.

شاهدنا الأشجار محطمة عارية عن الأوراق. والماشية القريبة منها قد فطست فضلاً عن عدد كبير من الرعاة الذين لاقوا حتفهم. ووجدنا كتلاً من الصخر كبيرة بحيث يصعب أن تحيط بها ذراعان. من هذا أدركنا أننا خرجنا من المحنة بأقل الأذى وأدركنا بأن لإستنجادنا بالله وتلاوتنا (الميزيرير) الفضل

(٦٣) وتبدأ "إشملني يا ربّ برحمتك".

في حمايتنا أكثر مما كان لمجهودنا الخاص. فرفعنا الشكر لله وواصلنا السفر الى (ليون). وفي هذه المدينة مكثنا أسبوعاً ثم إستأنفنا رحلتنا نشطين وإجتزنا الجبال ببسر. وفي الجانب الثاني إبتعت فرساً لأن بعض المتاع عندي كان قد ثقل على جيادي الأخرى.

بعد مرور يوم واحد لنا في أرض إيطاليا، أدركنا الكونت (غالوتو دلا ميراندولا) وكان يسافر بعربة البريد. فتوقف حيث كنا ولامني على رحيلي قائلاً إنني كنت مخطئاً ونصحني بالأمر أمضي قدماً وأن الأمور ستكون أفضل لي من السابق بكثير لو قفلت راجعاً. أما إذا أصرت على مواصلة السير فإني سأترك الميدان لأعدائي وسأمنحهم كل الفرص ليلاحقوا بي الأذى، في حين إن عودتي ستحبط المؤامرة التي حاكوها ضدي وقال:

- إن أولئك الذين خصصتهم بأكبر الثقة هم الذين خانوك.

وكل ما أوضحه لي هو أنه يعلم بما لا يرقى اليه الشك ان كردينال (فرارا) هو الذي أوقع بي مستعيناً بالوغدين اللذين إستأمنتهم على مقتناتي. وظل السيد الشاب يواصل إلحاحه علي بالعودة رغم كل شيء ثم إنه ركب عربته وإنطلق بها. وأنا بدوري ويسبب رفاقي قررت مواصلة رحلتي في حين كنت بين: العودة الى فرنسا، أو التوجه رأساً الى فلورنسا. لازمتني الحيرة وبقيت مذنباً الى أن رسوت أخيراً على قرار التوجه الى فلورنسا دون تلكؤ والإنضمام الى قافلة البريد. إلا أنني لم أقم بتهيئة أسباب سفري بأولى القوافل الى أن عقدت العزم على فلورنسا بصرف النظر عما سينتظرنني فيها من متاعب.

فارقت السنيور (ابوليتو كونزاكا) الذي سلك سبيل (ميراندولا) في حين إتجهت نحو (بارما) و(بياجنزا). بعد وصولي هذه المدينة لقيت الدوق (بيير لويجي) صدفةً في أحد شوارعها. فتفرس بي ورکز نظراً حديداً حتى عرفني، ولعلمي بأنه كان علةً ما قاسيت في قلعة سان انجلو، فقد تلاحقت أنفاسي وكدت أختنق عندما وقع نظري عليه. ولما لم أجد وسيلة للإفلات منه، رأيت أن أقصده في زيارة. دخلت عليه وقد فرغ لتوه من الطعام. وكان معه أفراد من أسرة لاندي Landi أولئك الذين فتكوا به فيما بعد. عندما واجهت سموه، إلتقاني بحفاوة وترحاب ماتوقعتهما. ومن حديث كثير له توجه بخطابه للحاضرين قائلاً عني اني بلغت الآن قمة صنعتي وفني. واني قضيت مدة طويلة سجيناً في روما. ثم إلتفت الي قائلاً:

- بنقوتو! أي صديقي العزيز ثق اني تأملت كثيراً لما لقيت من أرواء. وكنت متأكداً من براءتك لكن لم يكن بيدي شيء أساعدك به. ذلك لأن والدي في حينه- أصر على إرضاء فريق من أعدائك الذين أقنعوه بأنك تغتابه وتشنع به. في حين كنت موقناً بالأمر لظل لهذا من الحقيقة. ثق اني كنت شديد الألم لما أصابك.

وكرر ذلك وأعادته مرآت ضارباً على هذا الوتر حتى بدا كمن يطلب مني المغفرة. بعد ذلك إستفسر مني عن الأعمال التي قمت بها للملك المسيحي الأعظم وكان يصغي الى شرحي بإهتمام بالغ مظهراً ما لامزيد عليه من الإلتفات والتكريم. ثم سألني عما إذا كنت راغباً في خدمته. فأجيبته إن شرفي

لا يسمح لي ولو إني أكملت كل الأعمال الهامة التي بدأت بها للملك الجليل، فلاشك اني أفضل تقديم خدماتي لسموه قبل أي سيد عظيم آخر.

وهنا لا يسعني إلا إظهار العجب من قدرة الله اللامحدودة. فهي لا تترك ذلك الذي يبغى البريء بشراً وظلمه دون عقاب مهما بلغت منزلته هذا الرجل في الواقع طلب مني العفو بمحضر من كان بعد فترة قصيرة سيثأر لي وللكتيرين الآخرين الذين إصطلوا بنار إضطهاده ولؤمه. كما فعل أحد الذين أعرفهم وسأصف في الوقت المناسب موقفه العدائي مني.

في تدويني هذه الأمور الخصوصية ليس ثم حافز دنبوي يدفعني. وكل قصدي من سردها هو تقديم شكري لله الذي أنقذني من هذه الملمات العديدة. ففي وسط تلك المحن كنت أستصرخه دوماً طالباً منه أن يبسط عليّ ظل حمايته مستودعاً روحي له فكان عز وجل يظهر لي حوله وقدرته على الفور بعد إعتماذي على نفسي قدر الإمكان. فإذا خانتني قواي وتعشرت بي القدم كشفت قدرة الله عن نفسها بشكل غير منتظر وأنزلت العقاب بالظالمين المعتدين جزاءً وفاقاً أولئك الذين يسيئون استخدام الوظائف الشريفة الرفيعة التي أناطها الله بهم.

عدت الى الفندق لأجد الدوق وقد أرسل لي ألواناً مختلفة من نفيس المأكّل وفاخر المشرب. فأكلت بشهية. ثم إمتطيت حصاني ولويت عنانه الى فلورنسا. وفيها وجدت شقيقتي وبناتها الصغار الست، وهن بين من بلغ سن الزواج ومن هو رضيع. وكان زوجها ثم، وهو عاطل إنقطع عن مزاوله عمله بسبب أحداث معينة وقعت له في المدينة.

كنت قبل أكثر من عام قد أرسلت بعض الحلبي الذهبية والمجوهرات المصوغة الى فلورنسا مما يُقيم بأكثر من ألفي دوقية. كما إني جلبت معي مقداراً آخر تبلغ قيمته زهاء ألف كراون. وكنت أرسل إليهم أربعة كراونات ذهبية شهرياً بصورة منتظمة كما كانوا عادة يصيرون ربحاً من بيع جانب من الحلبي يوماً بيوم. ومع إن النقود التي كنت أرسلها لم تكن كافية، فقد تبين لي رغم ذلك ان زوج أختي كان عفاً أميناً بحيث لم يمدّ يده الي أموالي التي كانت في الواقع أمواله خشية إغضابي، بل راح بدل ذلك يرتهن كل مالديه من متاع في الدنيا تقريباً، فأكلته أكلاً وإمتصته عظماً تلك الفائدة التي كان يدفعها للمرتهن. وبهذا تبين لي مبلغ أمانته وعزمت على زيادة مساعدتي له كما قررت ان اكفي حاجة بناته وأستُر خلتهن قبل رحيلي عن فلورنسا.

في ذلك الزمن - شهر آب من العام ١٥٤٥ كان دوقنا أعني دوق فلورنسا يقيم في (پوجيو كايانو Poggio a Caijano) وهو موضع يبعد عشرة أميال عن فلورنسا. فتوجهت اليه وغرضي الوحيد هو السلام عليه كما تقضي قواعد الأدب. فأنا مواطن فلورنسي وأجدادي كانوا من أخلص أصدقاء آل مديتشي. وكنت من جهتي أكنّ للدوق كوزيمو حباً خاصاً.^(٦٤)

(٦٤) في العام ١٥٣٧ اختير كوزيمو دوقاً لفلورنسا على ان يعاونه في حكمها مجلس شيوخ ومجلسان استشاريان. وأيد إختياره الامبراطور شارل الخامس (شارلكان). وفي العام نفسه تمكن جيش الجمهوريين الفلورنسيين ودحرمهم. عرف بالذكاء والطموح فأعلن نفسه دوقاً وهاجم سيينا (١٥٥٤) ودحر جيشاً فرنسياً يقوده پييرو ستروزي=

كما قلت توجهت الى (پوچيو) للسلام عليه فحسب، لاتخالجني أية فكرة في البقاء لديه كما شاءت إرادة الله بعد ذلك... فهو المدبر للأشياء على أحسن تقويم. ما علم الدوق بوجودي حتى أقبل عليّ وحياني بحرارة ومودة فائقتين، ثم طفق هو والدوقة يستجوياني عمّا قمت به للملك من عمل فسرّني أن أسرد عليهما الحكاية برمتها. وبعد أن فرغت قال الدوق إن ماحدثته به كان قد علم به من قبل وإني ما أنهيت إليه إلا بالحقيقة ثم أضاف بكلّ لطف:

- ما أقلّ الجزاء الذي نلته على جهودك العظيمة الفائقة؟ أي بنفوتو العزيز لو خطر ببالك أن تنجز لي عملاً فنياً فإنني سأجزيك بشكل يختلف تماماً عن الطريقة التي عاملك بها ذلك الملك الذي أفرطت في الثناء عليه مدفوعاً بطيبة نفسك ورهافة احساسك.

عندها نوهت بالواجب الكبير الذي أراني ملتزماً به إزاء الملك الذي أخرجني من سجن عانيته ظلماً وعدواناً، وأتاح لي فرصة القيام بعمل أسمى وأرفع بمراحل من أي عمل اضطلع به فنان من حرفتي. وكان الدوق أثناء كلامي يتململ ويتلفت مبدياً فروع الصبر وكأنه لايقوى على إنتظاري حتى أنتهي. فإبتدري قائلاً:

- لو قمت لي بعمل سأجزل لك العطاء بشكل لاتحلم به. شريطة ان يحوز رضائي وهو ما لأشكّ فيه. وأنا ذلك المسكين المنكود الحظ، رغبة مني في إطلاع مدرسة الفن الفلورنسية الرفيعة على حقيقة كوني قد كلّفت بعد رحيلي عنها بإنجاز أعمال فنية في أفاق أخرى واسعة تفوق التصور، أوجب الدوق معرباً عن سروري العظيم في أن أصنع تمثالاً عظيماً من الرخام أو البرونز يقام في ميدانه الرائع (پيازا Piazza).

فأجاب إن أول عمل يرغب في أن يكلفني به هو تمثال (پرسيسوس Persius)^(٦٥) فإن فكرة هذا التمثال كانت تلازمه منذ زمن طويل وهو يتمنى تحقيقها على يدي. ثم طلب مني أن أصنع نموذجاً مصغراً له. بدأت عمل النموذج راضياً مستبشراً وأكملتته في أسابيع قليلة. وكان إرتفاعه يبلغ كوبيتاً واحداً تقريباً (١٨ إنجاً). وإستخدمت له الشمع الأصفر بكلّ دقة، فبدا جميلاً بما أودعت فيه من حذق وبراعة. عاد الدوق الى فلورنسا إلا أنني لم أوفق في عرضي النموذج عليه إلا بعد عدة أيام. وبدا عند لقائنا وكأنه لايعرفني لم تقع أنظاره عليّ من قبل، فشعرت بالذلة والحيرة المرة من علاقتي نتيجة

=بالقرب من مارشيانو. وفي العام (١٥٥٥) استسلمت له المدينة بعد حصار طويل ووافق الملك الاسباني فيليب الثاني على ان يضمها كوزيمو الى أملاكه. وقوي مركزه عندما انتخب وأحد من آل مديتشي من فرع ميلان- پاپا بإسم پيوس الرابع. فأخضع توسكانيا لحكمه وقام بعده بإصلاحات إقتصادية وعمرانية أظهرها تحجيف المستنقعات. وكان محباً للفنون مشجعاً لأهلها. إلا أنه شقي في أواخر سني حكمه وتوالت المصائب في أسرته. ففي خلال ست سنوات (١٥٥٧-١٥٦٢) توفي له إبنان وبناتان ثم زوجته. وقد استغل اعداؤه هذه المصائب للنيل من سمعته ونشروا الشائعات حولها. وفي العام ١٥٦٤ ترك الحكم لإبنه فرانشسكو. وتزوج في العام ١٥٧٠ (العام الذي توفي فيه جليليني) محظيته كاميللا مارتيللي وتوفي في ١٥٧٤.

(٦٥) پرسيسوس (في الأساطير الاغريقية) هو ابن جويتر من زوجه داناي (إلهة اغريقية) جاء في الاساطير انه قطع رأس (ميدوسا) وأنقذ منها (أندروميذا) التي تزوجها.

ذلك. وفي ذات يوم أدخلت النموذج الى قاعة الشباب فأقبل بعد تناول الغداء هو والدوقة^(٦٦) وعدد من رجال الحاشية النبلاء. وشرع يتفحصه وينعم النظر فيه وشاعت علائم الرضى في وجهه وأخذ يثنى عليه دون تحفظ. وهذا ما أسلمني الى الأمل بأنه على شيء من الألمان بدقائق الفن وكان إرتياحه يزداد بطول التأمل فيه. ثم إبتدرني قائلاً:

- أي بنفوتو العزيز، لو وفقت الى إنجاز عمل هام يمثل الدقة والإمتياز اللذين أنجزت بهما النموذج فسيكون أبدع قطعة فنية في الميدان.

فأجبتة بقولي:

- يا صاحب السمو! في الميدان آثار فنية لـ(دوناتللو Donatello)^(٦٧) العظيم وميكالانجلو الإلهي. وقد أثبت هذان الألبان بأنهما أعظم فنانيين ظهرا منذ الزمن القديم. وبما أن سموك الجليل متحمس جداً لنموذجي هذا. فكن على يقين بأني عقدت العزم على أن يخرج التمثال الأصلي أجمل من نموذجي بثلاثة أضعاف.

وعلى إثر ذلك حصل جدال ومناقشة إستمر زمناً غير قليل. فقد كان الدوق يردد بأنه خبير وأنه على إدراك تام بما يمكن تحقيقه. فقلت له إن ما أخرجته يدي من أعمال يفوق ما وعدته بكثير. لكن يجب عليه أن يزودني بالوسائل والأسباب إذ أنني عاجز بدون مساعدته وتوفيره ما أحجته فطلب مني تقديم كشف مفصل بالمبالغ المطلوبة. وأن أكتب له تقريراً دقيقاً بما أحجته ثم أضاف يقول انه سيحرص على أن تجاب طلباتي بالتمام والكمال.

لاشك في أنني لو كنت من الذكاء والدهاء في تأمين ما أحجته لعملي، بتوقيع عقد لما عانيت كل المتاعب التي تلت، ولما قاسيت ما قاسيت نتيجة هذه الغلطة. كان الدوق يلح الحاحاً شديداً علي في إكمال التدابير وإنجاز العمل. ولم أدرك بأن هذا السيد يتعامل كتاجر أكثر منه دوقاً. في حين كان تعاملني معه بإعتباره دوقاً أكثر منه تاجراً.

نظمت طلباتي بتقرير وكان عطف سموه عليها بالغ الكرم. قلت في تقريرتي:

"يا أغلى إنسان. إن المطالب والإتفاق الحقيقي يخرج عن نطاق هذه الكلمات والوثائق. لأنهما يتوقفان على درجة نجاحي في العمل الذي تعهدت به. فإن أصبت النجاح فأنا على ثقة بأن سموك الأفخم سيتذكر جيداً ما وعدني به".

سُرَّ سموه بهذه العبارات وبالطريقة التي إستخدمتها للإعراب عن ذات نفسي فغمرني والدوقة

(٦٦) تزوج كوزيمو (الأول) في العام ١٥٣٩، بـ(ليونور دي توليسو Leonor de Toledo) ابنة پدرو دي توليسو نائب الامبراطور شارلكان في مملكة نابولي.

(٦٧) (١٣٨٦-١٤٦٦) دوناتللو دي بيلتا برادي Donatello di Belta Bardi نحّات ومثال إيطالي يعد واحداً من أعظم فناني الرينيسانس. كان واقعي النزعة في تصوير الجسم البشري. تتجلى روعة فنه في تماثيله ونقوشه البارزة البرونزية وأخصّها بالذكر تمثال القديس جورج المقام في الميدان بـ(فلورنسا) - والى هذا يشير چليني هنا - (عمله خلال ١٤١٦-١٤٢٠) وتمثال داود الشاب البرونزي وكلاهما معروض الآن. وغير ذلك من الآثار في مدن إيطالية أخرى.

بكرمهما الى حد يفوق التصور.

كنت شديد اللهفة الى الشروع في العمل. فأعلمت سموه بأني سأكون في حاجة الى دار لأرتب شؤوني وأبنى مسابكي. بعضها لفخر الطين وبعضها لصبّ البرونز، وأخرى غيرها لسبك وصبّ الفضة والذهب. وقلت إنني مدرك تفهمه مبلغ شوقي لخدمته في مجالات فني هذه ولذلك سأحتاج الى غرف مناسبة لهذه الأغراض ولكيما يتحقق سموه من مبلغ شوقي الى خدمته أضفت قائلاً: إنني عثرت على المنزل الذي يفني بأغراضه وإنه يقع في موضع ملائم للغاية. ولما كنت أكره إزعاج سموه بموضوع مالي أو أي شيء آخر قبل أن تكتحل عيناه برؤية عملي، فقد رجوت أن يتناع لي هذا المنزل بثمن جوهرتين كنت قد جلبتهما معي من فرنسا. وإن شاء ابقاها عنده حتى أملك المنزل بما أحققه من أعمال. كانت هاتان الجوهرتان قد صيغتا في حليتين يديعتين من قبل مساعدي وفق التصميم الذي صنعتته لهما. وبعد أن تفحصهما ملياً قال لي مشجعاً وبأسلوب أفعمني بالأمل الخادع:

- خذ حليتك يا بنقوتو. فأنا لا أريدهما بل أريدك أنت. وستفوز بمنزلك مجاناً.

ثم إنه تناول عريضتي فكتب حاشية في ذيلها مازلت محتفظاً بها حتى الساعة وهذه هي حرفياً:

"فليكشف عن المنزل. ويتم التأكد من هوية بائعه والتمن الذي يطلبه له، لأننا نرغب في إرضاء بنقوتو!"

خيّل لي ان المنزل أصبح ملكي. ليقيني بأن عملي سيكون موضع رضى بشكل يفوق ما وعدت. ثم إن سموه بعد ذلك أصدر أمراً واضحاً لوكيل خرج له يعرف باسم (السيد پيسير فرانشسكو ريجيو Ser Pier Francesco Riocio) وهو من (پارتو). وكان فيما مضى معلماً او مربيّاً للدوق. كلّمت هذا الحيوان الخشن مفصلاً جملة ما أحتمه. ونوهت بوجود حديقة صغيرة ملحقه بالمطبخ ملاصقة للمنزل حيث كنت أريد أن أقيم فيها مصنعي. فقام فوراً بإناطة هذه الأشغال بأحد المتعهدين. وهو شخص نحيف أعجف فظّ الطباع يدعى (لاتانزيو گوريني Lattanzio Gorini). هذا الشخص التافه الحقيير بيديه العنكبوتيتين وصوته الشبيه بطنين البعوضة، قام كما شاءت إرادة إبليس بنقل الحجارة والرمل والجص ببطء يفوق ببطء الحلزون، وبكميات لم تكن تكفي لبناء بيت للحمام الزاجل إلا بشيء من الصعوبة!

بدء اليأس يخامرني للبطء الشديد الذي يسيير به عملي لكنني شجعت نفسي بقولي "لابأس فالبيديات الصغيرة قد تؤدي أحياناً الى نهايات عظيمة". والى جانب هذا فقد وجدت مبررات لأملي برويتي كيف بددّ الدوق الآلاف المؤلفة من الدوقيات الذهبية في أعمال نحت فاشلة من منتوج ذلك الحيوان الأبله (باندنللو Bandinello)^(٦٨) فسرى ذلك عن نفسي قليلاً، ولكزت (لاتانزو گوريني) هذا لكزة في دبره ليتحرك الى أمام مثلما تصرخ في مجموعة من الحمير العرج يقودها صبي أعمى.

(٦٨) او باندنللي باجيو (١٤٩٣-١٥٦٠) نحات معروف ولد في فلورنسا لأب صانع من خاصة آل مديتشي المقربين. لذلك بسطت هذه الأسرة ظلها على الإبن الذي تتلمذ للنحات (جيوفاني روستينجي) وأصبح فيما بعد واحداً من كبار النحاتين في بلاط الدوق كوزيمو. ومن آثاره الباقية يستدل بأنه كانا نحاتاً ممتازاً لا كما إعتبره معاصروه الفنانون ومنهم چليني .

رغم كل هذه المصاعب، مضافاً إليها إنفاقي من جيبي الخاص. قمت برسم وتخطيط موقع المصنع وأزلت الأشجار والكروم من الأرض مواظباً بدأب ونشاط كعادتي. وإعتمدت في أعمالي الأخرى على صديق حميم جداً هو (تاسو Tasso) النجار، فقد كلفته بإعداد بعض الأطر الخشبية للبدء في (برسيوس) كان هذا فناً ممتازاً لا مثيل له ولا نظير في مهنته برأيي. وهو فضلاً عن هذا إنسان مرح خفيف الظل، كان كلما زرته يحييني بضحكة وبأغنية قصيرة على مقام (الزير). وأسرت بي قدمي إلى درب اليأس والقنوط إذ تلقيت أنباء من فرنسا تشير إلى أن شؤوني هناك تسير من سيء إلى أسوأ. في الوقت الذي لم أكن أعلق آمالاً بفرص طيبة هنا في فلورنسا بسبب الفتور الذي ألقاه. على أن (تاسو) كان يرغمني إرغاماً على سماع نصف قصيدة غنائية على الأقل فتنتعش نفسي في صحبته وأطرد أفكار السوء عني قدر الإمكان.

قطعت أشواطاً في مشاريعي التي نوهت بها وتهيأت بنشاط أكبر لإقامة الأبنية - وقد سبق لي أن استعملت كمية من الجص. عندما وصلتني دعوة بالحضور فجأة عن طريق أمين السر. فتوجهت إلى القصر وكان سموه قد فرغ لتوه من طعام العشاء. وجدت أمين السر هذا في قاعة الساعة. فحيبته باحترام كبير فردّ تحيتي ببرود عظيم. ثم سألتني من الذي خولني الحق في إشغال المنزل وأمر من أمني وأشيد في الموضوع؟ وقال إنه منذهل لطيشي الأحقق وتهوري. أجبت: إنني شغلت المنزل بأمر سمو الدوق. وان سيادتكم بالنياية عن سموه وبإسمه أمرت (لاتانزيو غوريني) بتزويدي بما أحتاج. وان (لاتانزيو) هذا نقل لي الحجر والجص، وهياً ما كنت أحتاجه زاعماً أن سيادتكم كلفه بذلك.

وعندها راح الحيوان يهاجمني بضراوة تفوق ماسبق منه قائلاً "لا أنت تقول الصحيح ولا واحد من الذين ذكرتهم". وهنا فقدت السيطرة على نفسي وقلت:

- اصغ الي يا وكيل الخرج. إنني سأحترم سيادتكم وأخاطبك باحترام مثلما أكون في حضرة الدوق إن تكلمت بالشكل اللائق برتبة النبيل التي تحملها. فإن سلكت خلاف ذلك فإنني سأخاطبك باعتبارك (سر بيير فرانشكو ريجيو) ذلك الإنسان العادي.

فإستشاط غضباً وهاج هائج حتى خيل لي أن روحاً من الجن قد ركبته. لقد كان أعجل على المقدر مما كتب في السماء. إذ أجابني بسيل دافق من الشتائم المقذعة وتسأل باحتقار عما يحدو به إلى التنازل والسماح لرجل مثلي بمخاطبته فأثارني بذلك وإستفزني، فأجبت بما يلي:

- أصغ الي يا (سر بيير فرانشكو ريجيو) ريثما أعلمك بمن هم من أمثالي، ومن هم من أمثالك وأقصد أولئك السادة الذين يلقنون الصغار الأحرف الأبجدية^(٦٩).

إنقلبت سحنته وإرتفع صوته وهو يردد بعنف أشد، كل ما قاله في الأول. فقابلت صلافته بموقف عدائي أشد وقلت له إن أمثالي من الرجال جديرون بمخاطبة الپااوات والأباطرة ناهيك عن ملك فرنسا الرفيع الشأن. وربما تعذر عليه أن يجد نظيراً لي في العالم كله. في حين نجد عشرات من أمثاله في عطفة اي شارع.

(٦٩) يعرض بنفوتو مهنة وكيل الخرج الأساسية وهي تعليم الأطفال.

عندها نطّ وإعتلى إفريزاً للجلوس عند عتبة النافذة في القاعة وطلب منفِعلاً أن أعيد العبارة التي نطقتها. ففعلت بأشدّ من الأول حدّةً وأضفت إليها قولِي اني الآن فقدت كلّ رغبة في الخدمة عند الدوق وسأعود الى فرنسا حالاً وهو ما كان بوسعي تنفيذه دونما عائق. تسمّر البهيممة حيثما هو مصعوقاً بوجه كالح كالطين الأصفر وإنصرفت وانا أتلظّي بنار الغيظ مصمماً على الرحيل وحبذا لو فعلت.

لم يكن بوسع الدوق أن يسمع هذه المشادة الحادة فوراً. وقد إنتظرت عدة أيام عبتاً إذ لم يبدر شيء بهذا الخصوص. ليس ثمّ شيء يربطني بفلورنسا إلاّ موضوع أختي وبناتها، فبالمال القليل الذي جئت به كنت أنوي أن أتركهنّ على خير حال ممكن. ومن ثمّ أتوجه الى فرنسا بأسرع ما في إمكانني غير عابيء برؤية إيطاليا ثانية.

وفيما أنا أستعجل أموري للسفر دون طلب الإذن من الدوق أو أي شخص آخر. فوجئت بوكيل الخرج يوسل بطلبي صباح ذات يوم دون سبق إنذار من تلقاء نفسه ويكلّ تواضع ومسكنة. وشرع حال اللقاء يلقي خطبة طنانة جوفاء لا أول لها ولا آخر لم أتبين منها بلاغة أو إنتظاماً أو حداقة ولكن ما إستخلصت منها زعمه بأنه مسيحيّ صالح وإنه يكره أن يعادي أحداً. ثمّ سألتني نيابةً عن الدوق كم يكفيني من راتب لمعيشتي؟ وكنت أثناء ذلك واقفاً غارقاً في أفكارني الخاصة. فلم أجبه بشيء لأنني كنت قد قررت السفر. وعندما وجدني ساكتاً هداه ذكاؤه الى القول:

- أي بنفوتو. إن الأمراء يتوقعون جواباً عن أسئلتهم وإني أكلّمك نيابة عن سموه.
فقلت:

- إن كان موكلّاً من سموه حقاً فسأجيب بطيبة خاطر.
ثمّ أضفت: "بأن عليه أن يبلغ سموه بأنني لا أعتزم إحتلال المرتبة الثانية في خدمته نسبة الى أي فنان آخر".

فقال وكيل الخرج:

- يتقاضى (باندللو) مائة دوقية كمرتب. فإن رضيت بمثل هذا المبلغ فالمسألة منتهية.
أجبت إنني راض، شريطة أن يدفع لي كلّ ما أستحقه من علاوة "عندما تشاهد أعمالي كاملة". وأن يترك كلّ شيء لحكم سموه الميجل. وهكذا عدت لأمسك بالخيط مرّة أخرى دون رغبة مني، وتفرغت لعملي. وكان الدوق يظهر لي ما لا مزيد عليه من دلائل الرعاية والإهتمام.

تسلمت عدداً من الرسائل كتبها لي ذلك الصديق المخلص (گويدو گويدي) من فرنسا. ولم يكن فيها حتى ذلك الوقت إلاّ الطيب من الأخبار. كما كان خلفتي (اسكانيو) يرسل لي ما يطمئنني على أموري هناك، ويوصيني بأن لا أقلق أو أهتم وأن أرفّه عن نفسي وأخذ بأسباب اللهو والتسلية وإن حصل شيء فإنه لن يتردد في إخباري. لقد أبلغوا الملك بدخولي خدمة الدوق وبما أنه أنبل إنسان على وجه البسيطة فقد ظل يردد قائلاً:

- ولم لا يعود الينا بنفوتو؟

وإستجوب مساعديّ كلاً على حدة. فأجابه كلاهما بأني كتبت أخيرهما بسعة العيش والرخاء الذي أصابني وإني عازف عن العودة لخدمته. فإغتاط الملك من هذه الكلمات التي لم تخرج من فمي وعقّب قائلاً:

- لما تركنا دون سبب. فلن أطلب عودته ثانية وليبق حيث هو.

هذان المجرمان الخائنان دبراً ما دبراً بالشكل الذي طاب لهما والمصلحتهما. إذ أن عودتي الى فرنسا ستعيدهما الى منزلتهما السابقة لا أكثر من خلفتين يأتريان بأمرى ويطيعان قراراتي في حين أنهما بقائى بعيداً سيسرحان ويمرحان في بيتي حريين طليقين، ولذلك توسلاً بكلّ حيلة ليحولا دون رجوعي. في الوقت الذي كنت منشغلاً في بناء المصنع ليتسنى لي الشروع في (پرسیوس) قمت بعمل مجسم بالحجم الطبيعي المطلوب له من الجبس وذلك في الطابق الأرضي من المنزل- على أن يتم صبّ التمثال الأصلي عليه. ثم وبعد التأمل توصلت الى أن هذه العملية قد تأخذ مني وقتاً طويلاً، فأطرحتها جانباً وأرسيّت على فكرة أخرى. سبق وان تم بناء المصنع آجرة فوق آجرة، فبدا بهيئة كوخ حقير سيء البنيان وكنت أصاب برجفة كلما تمثلته في خاطري. وبدأت في (ميدوسا)^(٧٠) فصنعت هيكلًا من حديد ثم كسوته بالصلصال وبعد أن إنتهيت منه وضعت في الكور وفخرته.

لم يكن عندي من المساعدين أكثر من صبيّ أو إثنين صغيرين. أحدهما كان وسيم الصورة للغاية. وهو ابن عاهر تدعى (گامبيتا Gambetta) إتخذته نموذجاً ونموذجاً- فالطبيعة هي الكتاب الوحيد الذي نتعلم منه الفن. ولقد حاولت إستخدام عدد من العمال إختصاراً للوقت وتعجلاً بالعمل، فلم أوفق ولم يكن بوسعي أن أقوم بكلّ شيء بنفسي. كان في فلورنسا عدد من الصناع يرغبون في الخدمة عندي. إلا أن (باندنللو) كان يزهدهم في ذلك ويحول بيني وبينهم. وبعد أن ضاق بي الأمر قال للدوق إنني أحاول الإستيلاء على عماله لأنني أفترق الى المهارة في صنع تمثال كبير. وإني أشد المعونة. وأنا بدوري شكوت للدوق المضايقة الشديدة التي يسببها لي هذا الوحش ورجوته أن يتوسط لتزويدي بعمال من الأويرا^(٧١) وهذا ما جعله يصدق أكاذيب (باندنللو) عني. وعندما تبين لي الأمر قررت أن أقوم بكلّ الأعمال بنفسي قدر مايسعني وهذا ما أدى الى بذل جهود خارقة. في تلك الأثناء إعتلت صحة زوج أختي وفاضت روحه بعد أيام قلائل. لم تزل أختي صغيرة السن، وقد تركها لي مع بناتها الست وهنّ في أعمار متفاوتة. وكانت هذه أول صدمة أتلقاها في فلورنسا: فلقد تركت أباً ووصياً لهاته المخلوقات البائسات.

على أية حال كنت حريصاً على أن يتم كلّ شيء بالصورة المطلوبة ووفق الخطة المرسومة. وكانت

(٧٠) في أساطير الاغريق. إن ميدوسا هي إحدى ثلاث (أورگونات) شقيقات. تكسو رؤوسن أفاعٍ بدلاً من الشعر كلّ من ينظر إليهنّ ينقلب الى حجر. لم يوفق پرسیوس الى قتل ميدوسا وإحتزاز رأسها إلا بنظره الى إنعكاس وجهها في المرآة.

(٧١) إستحدثت أويرا دل دوמו Opera del Duomo لصيانة أبنية كاتدرائية فلورنسا. وهي لجنة إدارية فنية تتألف من مديرين ومراقبين وعمال وفنيين.